يوليوس قيصر

يوليوس قيصر

(١) ليس من اليسير أن يذكر الاسكندر دون أن يذكر قيصر فقد كان التشابه بينهما عظيماً على ما بينهما من اختلاف الجنس وعلى ما بين عصريهما من تباين وعلى ما بين الظروف التي أحاطت بحياتهما وبالعالم القديم من عصريهما من افتراق . كان التشابه بينهما عظيماً الى حد أن ثانيهما مكمل لأولهما تكميلاً شعر به القدماء أنفسهم فشبهوا قيصر بالاسكندر واخترعوا في ذلك أساطير مختلفة كثيرة وسواء أكان قيصر يفكر في الاسكندر ويتخذه مثلاً في سيرته ومطامعه السياسية أم لم يكن فليس من شك في أن حياة قيصر وسيرته قد تمما حياة الاسكندر وسيرته

أراد الاسكندر أن يخضع العالم القديم كله لسلطان واحد سياسي وأراد أن يكون خضوع العالم لهذا السلطان السياسي وسيلة الى ايجاد الوحدة العقلية في النوع الانساني كله والى ازالة الفروق المختلفة التي كانت تفرق بين الشعوب ، وقد أخضع جزءاً عظيماً جداً من العالم القديم لسلطانه ولم تتح له الحياة الوقت الكافي لاخضاع بقية العالم القديم لهذا السلطان . فتح الشرق ولم يستطع أن يفتح الغرب بل أن الظروف أرادت ألا يكون فوز الاسكندر هذا متصلاً فقد عاجلة الموت ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ولما يضع لدولته الضخمة من النظم والقوانين ما يكفل لها الوحدة السياسية التي كان يريد تحقيقها ، فما هي إلا ان اختلف قواده وتقطع ملكه وقامت على انقاض دولته الضخمة دول كثيرة مختلفة ومع هذا فان فوز الاسكندر عظيم مثلناه لك في الفصل الماضي لأن هذه الدولة التي قامت على انقاض دولته في أقطار الشرق كانت يونانية كلها فقاربت بين الشعوب ووحدت الحضارة الانسانية وجعلت تعاون الشرق والغرب أمراً ميسوراً

وبينما كانت هذه الدول اليونانية الشرقية تؤدي في الشرق هذه الخدمة الانسانية القيمة كان الغرب الأوربي الذي لم يستطع الاسكندر أن يصل اليه خاضعاً لمؤثرين مختلفين هزّاه هزاً عنيفاً واحدثا فيه نفس الظاهرة التي احدثتها حركة الاسكندر في الشرق: أول هذين المؤثرين ظهور الجمهورية الرومانية في ايطاليا وانبساط سلطانها قليلاً قليلاً على شبه الجزيرة الايطالي فقد كانت هذه

الجمهورية قوة سياسية وعسكرية لم يعهد الغرب الأوربي مثلها وكانت نهضتها في الغرب كنهضة مقدونيا في الشرق تمهيداً لحركة عامة غايتها القضاء على الفوضى والوصول الى جمع أمور الشعوب الغربية في يد قوية حازمة تضبط فيها الأمور . الثاني الجهاد بين الحضارة اليونانية التي كانت تمثلها المستعمرات اليونانية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وصقلية والحضارة السياسية التي كانت تمثلها هذه الجمهورية الفينيقية الضخمة في أفريقيا الشمالية وهي جمهورية قرطاجنة . كان اليونان قد انبثوا على الساحل الايطالي والفرنسي والاسباني وفي جزيرة صقلية ونشروا حضارتهم وسياستهم وآدابهم وفلسفتهم في جميع البلاد التي استقروا فيها وكان الفينيقيون قد انبثوا في ساحل أفريقيا الشمالية وفي اسبانيا وفي جزيرة صقلية وكان الجهاد عنيفاً بين الجنسين كلاهما يريد أن يظفر بسيادة البحر ليحتكر التجارة احتكاراً ولكن الطبع اليوناني الذي كان يستتبع الخصومة الحزبية داخل المدن والحروب السياسية بين المدن انتج في هذا القسم من الغرب نفس الذي أنتجه في الشرق فضعف أمر اليونان وتفرقت جهودهم واستفاد الفينيقيون من هذا في الغرب كما استفاد الفرس منه في الشرق . ونهضت الأمة الرومانية في ايطاليا لتحقق نفس الغاية التي حققتها النهضة اليونانية في البلقان فاخضعت المدن الايطالية المستقلة وقضت على سكان المستعمرات اليونانية في ايطاليا وصقلية وكوّنت وحدة غربية قوية جاهدت الفينيقيين كما جاهد الاسكندر دولة الفرس وقضت على الفينيقيين كما قضى الاسكندر على الفرس وخضع الغرب

كله للرومان كما خضع الشرق كله لليونان . ثم لم يبق بد بعد أن تم هذا كله من أن تصطدم القوتان الشرقية والغربية وتفوز بالسلطان أقدرهما على الحياة وأصلحهما للبقاء . ولست في حاجة إلى أن أبين لك فساد الأمر في الدول اليونانية الشرقية وصلاحه في الدولة الرومانية الغربية فانت تستطيع أن تجد هذا مفصلاً في كتب التاريخ وإنما الذي يعنينا في هذا الفصل هو ان نقول ان القرن الثاني قبل المسيح لم يكد ينقضي حتى كان السلطان الروماني منبسطاً بدرجات تختلف قوة وضعفاً على البلاد اليونانية في اوربا وعلى الدول اليونانية في الشرق وحتى كانت فكرة الاسكندر وهي تحقيق الوحدة السياسية للعالم القديم قد أخذت تسرع الى التحقق وتظفر بالوجود الفعلي

(٢) ولكن شيئاً واحداً كان يحول دون تحقيق هذه الفكرة بالفعل وهو أن العالم القديم على ما أصابه من التطور العقلي والسياسي لم يستطع أن ينسى نظمه القديمة ويضع لنفسه نظما ملائمة لحياته الجديدة فكانت بلاد اليونان محتفظة بحياة المدن على النحو القديم وكانت دول الشرق قائمة على نظم الدول الشرقية القديمة بل كانت مدينة روما نفسها تعيش على نظامها الجمهوري القديم وكان العالم حينئذ مظهراً لطائفة من التناقضات الغريبة لا تكاد تحصى دوله ومدنه المستقلة ولكن هذا الاستقلال الذي كانت تستمتع به إنما كان استقلالا لفظياً لا حقيقياً لأن السلطة الفعلية كانت لمدينة روما على ان مدينة روما نفسها لم تكن تستمتع باستقلالها وحريتها

إلا استمتاعاً لفظياً فقد كانت النظم الجمهورية قائمة فيها ولكن السلطة الفعلية كانت قد انحصرت في أيدي الأغنياء يديرونها كما يشتهون ويصرفونها كما تريد أطماعهم وأهواؤهم وكان السخط عاماً على هذه الحال المنكرة التي تعلن أنواعاً من الاستقلال لا قيمة لها وتجعل حياة الشعوب المختلفة الى أفراد من الناس لا يكادون يبلغون الالف عداً فكان الاضطراب متصلا في الشرق وكان الجهاد بين الطبقات عنيفاً في الغرب وكان كل شيء يدل على أن صلاح الامر واستقراره في هذا العالم القديم لن يتم الا اذا تحققت بالفعل فكرة الاسكندر واشرف على هذه الدول والمدن المستقلة سلطان قوي قاهر حازم يضبط الأمور فيها وانت تستطيع أن تجد في تاريخ الرومان تفصيل هذه الاضطرابات وهذه الالوان من الجهاد الذي ختم حياة الجمهورية الرومانية وكان مقدمة لتكوين الامبراطورية الرومانية

(٣) في هذا الوقت ظهر شاب روماني من طبقة الاشراف هو يوليوس قيصر، ليس في حياته الأولى ما يميزه من غيره إلا أنه كان مسرفاً فاسد الاخلاق دنس السيرة مبغضاً إلى الذين كانوا يحرصون على الآداب الرومانية القديمة ومع ذلك فقد كان داهية ماكراً لا حدّ لأطماعه وكان مع هذا كله لا يعرف حداً خلقياً يحول بينه وبين المنكر في سبيل تحقيق هذه الأطماع ، كان من الأشراف وكان يزعم أن نسبه يتصل بآلهة « فينوس » ولكنه كان ذكياً فما أسرع ما فهم العصر الذي كان يعيش فيه وما أسرع ما قدر ظروف الحياة من

حوله وما أسرع ما عرف أن العوز السياسي انما ينال بالتملق إلى طبقات الشعب والمبالغة في ارضاء هذه الطبقات وما هي إلا أن أخذ يترضى هذه الطبقات فاذا هو كريم مسرف ينفق بغير حساب يستدين حتى يثقله الدين ولا يدع شيئاً يتوهم أن فيه رضى لطبقات الشعب الا اقدم عليه وأسرف فيه وإذا هو زعيم يلجأ اليه الفقراء والبائسون ويلتف حوله أصحاب الأطماع على اختلافهم وإذا هو قوة يجب أن تحسب لها الدولة حساباً وإذا هو يتقدم إلى مناصب الدولة فظفر في الانتخاب وإذا هو خصم لمجلس الشيوخ الروماني يدافعه ويجاهده يظهر نفسه مظهر الصديق للديموقراطية وانظر اليه قد فاز في جهاده فتولى حكم أقليم من الأقاليم الرومانية ولم يكد يصل إلى هذا الاقليم في فرنسا حتى ظهرت مقدرته السياسية والعسكرية ففتح فرنسا كلها وتعمق في المانيا وعبر البحر إلى بريطانيا العظمى واستفاد لنفسه من هذه الفتوح ثروة ضخمة استعان بها على كسب الفقراء والمصوتين في روما وإيطاليا كما أنه ضم إلى روما جزءاً من الأرض واسعاً خصباً وأتاح للحضارة اليونانية الرومانية أن تثبت في أقطار الغرب كما ثبتت في أقطار الشرق . فلما أتيح له كل هذا الفوز كثر خصومه ومنافسوه وعظمت أطماعه وإذا مجلس الشيوخ الروماني يريد أن يعزله من منصبه وإذا هو يمانع في هذا العزل وإذا الحرب قد شبت بينه وبين الجمهورية وإذا هو يقتحم ايطاليا فيظفر بروما وقد فر خصومه ينصبون له الحرب في الشرق وهنا ظهر أن قيصر خليفة الاسكندر حقاً ، أنظر اليه قد أخضع ايطاليا ثم طار

إلى اسبانيا فقضى فيها على الحزب المناصر لخصومه وأخضع في طريقه مدينة مرسيليا التي كانت مستعمرة يونانية مستقلة ، ثم أنظر اليه قد طار إلى الشرق فقضى على خصومه في موقعة فرسال ثم هو في مصر يقضي على المناصرين لخصومه ويجد من الوقت ما يمكنه من التدخل في أمور مصر ومن السعادة بالحياة مع ملكتها « كليوباترة » ، وهو الآن في آسيا يصلح من أمرها ويقضي على الاضطراب فيها ثم هو في أفريقيا الشمالية يبطش بخصومه بطشاً أخيراً ثم هو في اسبانيا يقضي على آخر مقاومة لخصومه ثم هو في مدينة روما يعلن ظفره وفوزه ويستمتع بنتائجها وقد تم له ما لم يتم للاسكندر من ملك العالم القديم المتحضر كله

(٤) وكان حظه خيراً من حظ الاسكندر فقد استطاع أن ينظم هذه الوحدة السياسية التي فشل الاسكندر في تنظيمها أو ان يضع الأساس لهذا التنظيم ، لم يكد يستقر في روما حتى محا السيادة الفعلية للنظام الجمهوري واستأثر بالسلطة كلها فجعل نفسه ديكتاتوراً طول حياته وجعل نفسه مقدساً وجعل لنفسه السلطة الدينية العليا ونصب نفسه زعيماً للضعفاء يحميهم ويحوطهم ولم يبق إلا أن يتخذ لقب الملك وكأنه كان يريد أن يتخذه لولا ان تعجله المؤتمرون فقتلوه في مجلس الشيوخ (مارس سنة ٤٤ قبل المسيح)

(٥) قتلوه وقد خيل اليهم انهم سيقضون على الطغيان ويردون إلى الشعب الروماني حريته ونظمه الجمهورية ولكن الحوادث دلت على أنهم كانوا مخطئين وعلى أن الشعب الروماني قد زهد في هذه

الحرية وسئم النظم الجمهورية وعلى أن العالم القديم كله كان قد نضج لتحقيق فكرة الاسكندر وايجاد هذه الوحـدة السياسية العامة التي يشرف عليها سلطان قوي متين ، كان الاسكندر اذاً صاحب الفكرة وكان قيصر منفذها ومهما يقل الفلاسفة وانصار الحرية ومهما يكون حكم التاريخ على قيصر أو له فليس من شك ما في انه بعـد الاسكندر أكبر قائد للفكر السياسي في العصر القديم ، هو الذي أسس الامبراطورية الرومانية ورسم نظامها وجمع العالم القديم كله تحت لواء واحد واخضعه لنظام سياسي واحد ولنظام قضائي واحد وأعده ليخضع لنظام ديني واحد أيضاً والعالم القديم مدين لقيصر بهذا كله وأوربا في القرون الوسطى مدينة لقيصر بحياتها السياسية وحسبك ان الامبراطورية الالمـانية كانت ترى نفسها وارثة للامبراطورية الرومانية التي أسسها قيصر وكان رؤساؤها يسمون أنفسهم قياصرة بل أن أوربا مدينة بنظامها السياسي في العصر الحديث لقيصر فمـا كان لويس الرابع عشر في فرنسا ولا قياصرة الألمـان الذين كانوا يخاصمـونه الا متأثرين بالنظام القيصري بل لقـد عصفت باوربا وبالعالم الحديث عاصفة الثورة الفرنسية فمـا هي إلا أعوام حتى أنتج النظام الجمهوري الفرنسي نفس ما أنتجـه النظام الجمهوري الروماني وقام نابوليون بونابارت في باريس مقام يوليوس قيصر في روما

بين عصرين

(١)

ظن الذين ائتمروا بقيصر وقتلوه انهم ائتمروا بما كان يمثله قيصر وقضوا عليه وظنوا أنهم قد وفقوا الى ما كانوا يطمعون فيه من رد امور الحكم الى الشعب ومحو السلطان الذي كان يحاول القضاء على الروح الديموقراطي . وما الذي يمنعهم ان يظنوا ذلك او يؤمنوا به وقد ائتمر المؤتمرون من قبلهم بالطغيان فأزالوه وانتدبوا لنصر الديموقراطية وحرية الشعوب فوفقوا اليه . ولكن كل شيء وقع بعد قيصر دلّ على ان هؤلاء المؤتمرين كانوا اصحاب خيال لا أصحاب تحقيق وعلى أنهم لم يأتمروا بالطغيان وانما ائتمروا بما كان باقياً من الديموقراطية ولم يقضوا على الجديد وانما قضوا على القديم . نعم ودل كل شيء وقع بعد قيصر على ان الذين كانوا قد ائتمروا من قبل بالطغاة والطغيان انما وفقوا الى الفوز لان نظام الطغيان كان قد أضعف نفسه وانتهى الى غايته ولان النظام الديمقراطي كان حديث العهد يكاد الناس يجهلونه ولكنهم مع ذلك يحبونه بل قل انهم كانوا يحبونه لانهم يجهلونه . وكان هذا النظام الديمقراطي يريد أن يعم ويسود فلا يحول بينه وبين ما يريد إلا هذا النظام العتيق نظام الطغيان واستئثار الافراد والاقليات بالامر . فلما أزيل هذا النظام العتيق خلت الطريق للجديد فظهر وانتصر وسيطر على العقول والعواطف وفروع الحياة العملية . أما في عصر

قيصر فقد كان الامر على عكس هذا . كان الناس قد سئموا الحرية أو قل كان الناس قد ضاقوا لهذه الحرية ذرعاً لانهم عجزوا عن النهوض باعبائها فلم ينتفعوا بها ولم تنتفع بهم . وكان النظام الديمقراطي القديم قد أصبح عتيقاً مملولاً لا سلطان له على النفوس ولا تأثير له في القلوب . وكان اختلاط الشعوب واشتداد الصلة فيما بينها قد أثبت عجز النظام الديمقراطي القديم عن سيادة العالم وضبط أموره. وكان العالم في حاجة شديدة إلى من يسوده ويضبط أموره في حزم وعزم . وكان قيصر هذا السيد الحازم العازم الذي أتيح له أن يزيل انقاض القديم ليتيح للجديد أن يظهر ويظفر ويسود . لذلك لم يحسن المؤتمرون بقيصر الى الديمقراطية وانما أساءوا اليها وتعجلوا قضاء الله فيها . وأنت تعلم أن جسم قيصر لم يكد يدس في التراب حتى كان انصاره والمشيعون له أكثر من خصومه والساخطين عليه وحتى اضطر الذين ائتمروا به وقتلوه أن يفروا بديمقراطيتهم وحريتهم إلى مكان بعيد . وأنت تعلم أن الذين نهضوا بالامر بعد قيصر ما زالوا بهؤلاء المؤتمرين حتى ثأروا منهم لقيصر وانهم بعد أن فرغوا من هؤلاء المؤتمرين انقسموا على أنفسهم واضطروا إلى أنواع من الجهاد كلفت العالم رجالاً وأموالاً وجشمته خطوباً وأهوالاً وانتهت آخر الامر إلى حيث كان قيصر قد انتهى من تثبيت سلطان الفرد من ناحية وجمع الشرق والغرب تحت هذا السلطان من ناحية أخرى واستقرار اغسطس حيث كان استقر خاله قيصر

كل هذه الاحداث التي المح اليها تلميحا تدل دلالة واضحة قوية

على انه كان قد آن لقيادة الفكر أن تنتقل من طور الى طور ومن يد الى يد . وفي الحق أنك لا تكاد تنظر في التاريخ منذ ابتداء عصر القياصرة حتى تستيقن أن شيئين قد فشلا فشلاً مطلقاً وآن أن يقوم مقامهما شيئان آخران . فأما الشيئان اللذان فشلا فهما الديموقراطية والفلسفة . وأما الشيئان الذين قدرت لهما السيادة وكتب لهما الفوز فهما الاوتوقراطية والدين . وقد يكون من الحق والصواب أيضاً أن نقول أن كل شيء كان يدل في ذلك الوقت على أن الغرب قد فشل وعلى ان الشرق قد قدر له الفوز والانتصار ومع ذلك فقد كان الغرب منتصراً والشرق منهزماً . ألم تكن جيوش الرومان قد وطئت أقطار الشرق وأخذت تستعمره وتستذله ؟ ألم يكن أغسطس قد محا استقلال آخر البلاد الشرقية المستقلة وهي مصر ؟ كان الغرب منتصراً من الوجهة العسكرية ولكن الشرق كان ينتصر من الوجهة العقلية والشعورية . أتظن من المصادفة المطلقة أن تنشأ الامبراطورية في روما ويثبت سلطانها في نفس الوقت الذي يظهر فيه الدين المسيحي في الشرق وتبدأ الدعوة اليه ؟ وهل كان النظام الامبراطوري في الغرب الا نحواً من نظام الملك الشرقي ؟ لقد عرضنا أمامك في الفصول الماضية ألوان الحياة اليونانية الرومانية وصور الحكم في هذه الحياة فما رأيت فيما عرضنا عليك نظاماً أوتوقراطياً صحيحاً وانما رأيت حكماً مقيداً ينتقل بين الملكية والارستوقراطية والديموقراطية ولكنه مقيد دستوري

على كل حال . ورأيت فيما عرضنا عليك ان اليونان والرومان لم يعرفوا نظام الدول الضخمة والامبراطوريات الواسعة في أوربا وانما عرفوا في جميع أطوارهم نظام المدن الصغيرة المنفصلة المستقلة التي تأتلف من حين الى حين ولكن كما يأتلف الاحرار المتحالفون. ورأيت كيف فشل الاسكندر حين أراد أن يحقق النظام الاوتوقراطي ويكوّن من الشرق والغرب دولة تخضع لهذا النظام : أما الآن فقد كان نظام الحكم المقيد قد فشل وكان نظام المدن المنفصلة قد فشل أيضاً وكان الاتصال بين الشرق والغرب قد قوي واشتدت أواصره وأخذت تظهر نتائجه فما الذي يمنع قياصرة الرومان أن يحكموا العالم كما كان يحكم الفراعنة في مصر والملوك في بلاد الفرس ؟ على ان انتصار الشرق على وضوحه وظهوره لم يكن كاملا موفوراً ولم يكن بدٌّ من أن يتم الجهاد وتنتهي التجربة الى أقصاها وينهار النظام الغربي القديم أمام النظام الشرقي الجديد

ولم يكن ذلك ميسوراً الا بعد أن يمضي وقت طويل يزداد فيه الاتصال بين الغرب والشرق شدة وقوة . ومهما يكن من شيء فقد فاز قيصر ومذهبه وانخذل النظام الجمهوري وأنصاره . ولم يكن فشل الفلسفة بأقل من فشل هذا النظام السياسي . وكيف لا تفشل وقد كثر الفلاسفة حتى تجاوزوا الاحصاء وكثرت مذاهبهم واشتد بينها الخلاف والتقاطع وعجزت الفلسفة ومذاهبها عن أن تحقق للناس ما كانوا يريدون أو بعض ما كانوا يريدون ؟ وأين هي آثار سقراط وافلاطون وارسطاليس في الحياة السياسية والاجتماعية ؟ ألم تحتفظ

المدن اليونانية التي كانت تدرس فيها هذه الفلسفة بنظمها القديمة التي اندفعت بها الى الفوضى والاضطراب وقادتها الى الذلة والخضوع؟ وهل تريد دليلاً على فشل الفلسفة من الوجهة النظرية الخالصة أكثر من هذا الخلاف بين الفلاسفة ومن اضطرار فريق منهم الى أن يستأنفوا الشك في كل شيء كما كان يشك السوفسطائية في القرن الخامس قبل المسيح ؟ واضطرار فريق آخرين الى أن ينصرف عن الفلسفة النظرية الى الفلسفة الخلقية ؟ واضطرار نفر من هؤلاء الى ان يزهدوا في اللذة ونفر آخرين الى أن يتهالكوا عليها؟ عجزت الفلسفة اذن عن ارضاء الحاجات السياسية للناس كما عجزت عن ارضاء العقل والشعور . فلم يكن بد من أن تنزل عن قيادة الفكر ولم يكن بد من أن يتولى الدين هذه القيادة . وأي دين هذا الذي يجب أن يخلف الفلسفة على قيادة الفكر ؟ ليس هو الدين الوثني القديم فقد جدت الفلسفة في هدم هذا الدين ووفقت الى تشكيك الناس فيه وقد عجز الغرب عن أن يستبدل بهذا الدين الوثني ديناً جديداً يستحدثه واضطرب الغرب بين هذه الوثنية المضحكة وبين اباحية هادمة لكل شيء مقوضة لكل سلطان . واذن فلم لا ينتشر في الغرب دين شرقي كما انتشرت في الغرب سياسية شرقية ؟

— ٢ —

كان هذا كله ظاهراً بيناً في العصر الذي ولي أيام قيصر ولكنه مع ذلك لم يتحقق الا بعد جهاد طويل عنيف . فقد ناضل القديم فأحسن النضال . لجأت المدن الجمهورية الى مجلس الشيوخ في

روما فناضلت القياصرة ما اتيح لها النضال ولجأت النظم الوثنية الى مجلس الشيوخ وقصور القياصرة فجاهدت المسيحية ما استطاعت الجهاد . ولكن القرن الثالث للمسيح لم يبلغ آخره حتى كان انتصار الشرق على الغرب تاماً شاملا . فأما آثار النظام الجمهوري فمحيت . محواً . وأما القياصرة فقد أصبحوا فراعنة يعبدون في العالم كله على نحو ما كان يعبد الفراعنة في مصر . وأما الوثنية فقد كانت تنفق أقصى ما تملك من عنف لتحتفظ بالبقاء ولكن البقاء لم يكن قد قدّر لها . واذا القرن الرابع قد انتصف واذا المسيحية هي الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية كلها . واذا المسيحية تضطهد الوثنية بعد ان كانت الوثنية تضطهدها . واذا الشرق قد سيطر على الغرب بنظمه السياسية وميوله الدينية

— ٣ —

وأنت تعفيني طبعاً من أن أتحدث اليك عن المسيح كما تحدثت اليك عن سقراط وافلاطون والاسكندر وقيصر . فليس المسيح في حاجة الى أن تدرس شخصيته وآثاره وقيادته للفكر في فصل موجز كهذا الفصل أو كتاب مجمل كهذا الكتاب

هناك شيء لا سبيل الى الشك فيه وهو ان المسيح قد قاد الفكر الانساني دهراً وقد لقيت قيادته للفكر صعاباً ازالتها وعقاباً ذللتها وأتيح لها أن تستأثر وحدها بالسلطان في الشرق والغرب حيناً . ولكن هذا الحين لم يتصل . وقد أخرج عما رسمته انفسي ان حاولت ان أفصل الاسباب التي حالت بين الدين المسيحي وبين

الاحتفاظ بما كان قد وصل اليه من سيطرة على العالم القديم كله أو أكثره . وانما ألاحظ ان هذا الدين المسيحي هوجم في وقتين متقاربين من ناحيتين متباعدتين . وقد أتيح له الانتصار في احدى هاتين الناحيتين وقدّر له الانقباض في الناحية الاخرى

لم يكد ينتصر في الغرب حتى أخذت القبائل الوثنية المتبربرة تهاجم العالم الروماني القديم . وقد استطاع الدين المسيحي أن ينتصر على هذه القبائل المهاجمة ويظلها بلوائه شيئاً فشيئاً حتى سلمت له أوربا المتحضرة . ولكنه بينما كان يسود في أوربا ويبسط لواءه على هؤلاء الوثنيين قليلا قليلا كانت حركة أخرى تحدث في آسيا . في هذه الصحراء العربية التي لم يكد يظلها القرن السابع للمسيح حتى كانت كلها مضطربة بظهور الاسلام . ولم يكد ينتصف عليها هذا القرن حتى كانت قد قذفت بأهلها في أقطار الارض المجاورة فاذا هم يفتحون ويمعنون في الفتح وينشرون دينهم الجديد . واذا المسيحية تنقبض أمامهم في الشرق كما ينقبض أمامهم النظام السياسي القيصري أيضاً . ولست في حاجة الى ان افصل لك الصراع بين الاسلام والمسيحية ولست في حاجة الى ان اذكر لك ان ظهور الاسلام مع انه قد احتفظ للدين بقيادة الفكر الانساني فقد قسم هذه القيادة بين دينين . فأما أحدهما فاستأثر بها في الشرق وهو الاسلام وأما الآخر فاستأثر بها في الغرب وهو المسيحية

— ٤ —

وقد استقر الدينان كل في موضعه مع انبساط وانقباض من

حين الى حين وتمت لها قيادة الفكر عصوراً لا يكاد ينازعها فيها منازع . ومن غريب الأمر أنهما خضعا لأطوار متشابهة في الشرق والغرب . كلاهما لم يستطع أن يستغني عما ترك اليونان والرومان من فلسفة وأدب وتشريع . وكلاهما استغل هذه التركة اليونانية الرومانية وأساغها راضياً مرة وكارهاً مرة أخرى . باسماً حيناً وعابساً حيناً آخر . كلاهما آوى فلسفة اليونان وتشريع الرومان واستعان بهما في كلامه وتشريعه . وكلاهما تجهم لفلسفة اليونان وتشريع الرومان حين أحسّ منهما خطراً قليلا أو كثيراً . وكلاهما أحدث في العالم حضارة مزدهرة ما استعان بالفلسفة اليونانية والتشريع الروماني مبتسماً متلطفاً محتاطاً . وكلاهما أحدث في العالم خطوباً شداداً وجشمه أهوالا عظاماً حين اندفع الجهل بأهله الى اساءة الاستعانة بفلسفة اليونان وتشريع الرومان

تبين أمر الفلاسفة الذين ظهروا في الشرق والغرب في ظل الاسلام والمسيحية . وتبين حظوظهم المختلفة من نعمة وبؤس ومن سعادة وشقاء . وتبين أسباب هذا كله فأنت مضطر إلى أن تلاحظ أن هذه الأسباب متشابهة وأن اختلفت أطوارها وبيئاتها وأنها راجعة كلها أو أكثرها إلى فهم الناس للدين والفلسفة أكثر من رجوعها إلى الدين والفلسفة في نفسهما . راجعة إلى مقدار ما كان للناس من علم يعظم معه نصيبهم من حرية الرأي أو جهل يضعفه معه نصيبهم من هذه الحرية

ومن غريب الأمر أن ما يسميه الناس اضطهاداً للفلسفة

في ظل الاسلام أو المسيحية لم يحدث الا من قوم كان جهلهم بالاسلام والمسيحية أكثر من علمهم بهما . وكان تعصبهم للمنافع والاطماع أشد من تعصبهم للدين . ماذا نقول ؟ بل من غريب الأمر أن اضطهاد الفلسفة هذا لم يحدث في ظل الاسلام والمسيحية وحدهما بل حدث في ظل الوثنية أيضاً ولنفس الاسباب التي أحدثته عند المسلمين والمسيحيين وهي الجهل من ناحية والمطامع والمنافع من ناحية أخرى . ولقد يكون من الحق على الذين يذكرون اضطهاد ابن رشد عند المسلمين وتحريق من حرقوا عند المسيحيين الاّ ينسوا مقتل سقراط وهرب ارسطاطاليس عند الوثنيين . وألاّ ينسوا أن هؤلاء الفلاسفة جميعاً انما نكبوا في أيام فتنة ومحنة وجهل وانحطاط في السياسة والأخلاق

— ٥ —

استقرت قيادة الفكر للاسلام والمسيحية طوال القرون الوسطى ولكن الله كان قد أراد أن تسترد الفلسفة والسياسة قيادة الفكر مرة أخرى وأن يكره الاسلام والمسيحية على أن يدعا قيادة الفكر بعد ما استأثرا بها هذه القرون الطوال

لست في حاجة إلى أن أفصل لك تاريخ النهضة الأوربية الحديثة ولا ما كان من استكشاف الكتب الفلسفية والآثار الأدبية والفنية التي تركها اليونان والرومان فأنت تعرف هذا مثل ما أعرفه ولكني أحب أن تفكر معي قليلا في هذه الآثار اليونانية الرومانية التي كان كل شيء في القرن الأول للمسيح يدل على أنها

قد فشلت وصبحت لا تصلح قواماً للحياة العامة . ما بالها في القرن الخامس عشر والسادس عشر قد أخذت تفتن الناس عن أنفسهم وديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم وميولهم ؟ وما بالها قد أخذت تستأثر بقلوب الناس حتى أنهم ليعرضون أنفسهم في سبيلها لمثل ما كان يتعرض له المسيحيون في محاربتها من سجن وموت ومن ألوان التنكيل والتمثيل ؟ بل ما بالها قد أخذت تثمر في هذا العصر الحديث ما لم تستطع أن تثمره في العصر القديم ؟ لقد كانت الفلسفة اليونانية قد انتهت إلى الشك في العصر القديم وعجزت عن اصلاح النظام السياسي والاجتماعي حتى سئمها الناس وزهدوا فيها . ولكن الناس لم يكادوا يدرسونها في العصر الحديث حتى فتحت أمامهم أبواب الأمل والعمل ومكنتهم من استحداث العلم وتغيير نظم الحياة وانتهت بهم الى ما هم فيه الآن من رقي . ما بالها فشلت قديماً وفازت حديثاً ؟ قل في تعليل ذلك ما شئت فقد تصيب وقد تخطىء ولكنك مصيب من غير شك ان لاحظت معي أن هؤلاء الفلاسفة من اليونان كانوا أرقى من الأجيال التي عاشوا فيها وكانوا قد سبقوا هذه الأجيال إلى حيث لم تستطع أن تدركهم . ولم يكن بد من أن تنتظر فلسفتهم قروناً طوالاً حتى يتم نضوج العقل الانساني فيحسن اساغتها واستثمارها . وهذا هو الذي كان . لم تكد تظهر هذه الفلسفة وتشيع بين المحدثين حتى آتت ثمرها طيباً منتجاً . واذا هي توجد نفراً من الفلاسفة والساسة تولوا قيادة الفكر حتى انتهوا به إلى الثورة الفرنسية ثم إلى ما نحن فيه الآن

العصر الحديث

— ١ —

أما في هذا العصر فيجب أن يتغير مذهبنا في البحث لان موضوع هذا البحث نفسه قد تغير ولأن الظروف التي تحيط بالعقل الانساني قد تغيرت تغيراً عظيماً وظهرت فروق كثيرة بينها وبين تلك الظروف التي كانت تحيط بهذا العقل أثناء العصور القديمة والقرون الوسطى

كانت قيادة الفكر للشعر أو للفلسفة أو للسياسة أو للدين . وكان من الغريب أو من النادر أن تشترك هذه الاشياء اشتراكا ظاهراً في توجيه شعب من الشعوب أو عصر من العصور . وانما كانت حياة الأمم المتحضرة في هذه العصور تصطبغ صبغة ظاهرة جلية هي الصبغة الادبية أو الفلسفية أو السياسية أو الدينية . أما في هذا العصر الحديث فأنت تضيع وقتك وقوتك ان حاولت أن تجد الشعب من الشعوب أو قرن من القرون صبغة واحدة تستأثر به وتشتمل على جميع أطرافه . وانما أنت مضطر حين تبحث عن قيادة الفكر أثناء العصر الحديث الى أن توزعها بين أمور مختلفة لان ظروف الحياة نفسها قد وزعتها بين هـذه الامور فلم تستأثر الفلسفة ولم يستأثر الشعر ولم تستأثر السياسة ولم يستأثر الدين بقيادة الفكر في فصل من فصول هذه القصص التي يكونها العصر الحديث وانما اشتركت هذه الامور كلها في قيادة الفكر وان شئت التحقيق والدنو من الاصابة فقل ان هذه الامور كلها قد تنافست واشتد بينها

النزاع في قيادة الفكر فقهر بعضها بعضاً وأخذ كل منها بنصيب من توجيه العقل الانساني والتأثير في حياة الشعوب

وآية ذلك انك تنظر في أي وقت من أوقات هذا العصر الحديث فاذا أنت أمام فلسفة تجاهد لتسيطر على الحياة وسياسة تجاهد لتصوغ الحياة كما تحب ودين يناضل ليحتفظ بمكانته وسلطانه وأدب يجد ليكون له التفوق والفوز ولكل واحد من هذه الاشياء زعماؤه وممثلوه والداعون اليه والذائدون عنه حتى في الأوقات التي يخيل اليك فيها ان أمراً من هذه الأمور قد ظهر تفوقه واستأثر بالفوز والغلبة. فقد يخيل اليك ان عصر الثورة الفرنسية مثلاً كان عصر سياسة ليس غير ولكن فكر قليلا وأتقن درس هذا العصر تجده عصر سياسة وعصر حرب وعصر علم وعصر فلسفة وعصر تشريع بل عصر دين أيضاً. وتجد كل هذه الامور تزدحم وتتنافس وتستبق الى قيادة الفكر تريد أن تستأثر بها وتسيطر عليها

— ٢ —

وقد يكون من الحق أن نلتمس العلة لهذه الظاهرة الجديدة التي وزعت قيادة الفكر بين طائفة من المؤثرات ولم تقصرها على مؤثر واحد كما كان الأمر في العصور الاولى

ولعلنا لا نتكلف كثيراً من العناء في التماس العلة لهذه الظاهرة فقد نلاحظ ان المطبعة اخترعت في هذا العصر وانها أثرت فيه آثاراً لاسبيل الى تقديرها فأذاعت كتب القدماء والمحدثين ومضت في هـذه الاذاعة لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية ولا تستطيع

القوانين والنظم المختلفة أن تقيدها . فبينما كانت تذيع في هذا البلد الكتب الدينية كانت تذيع في ذلك البلد الكتب الفلسفية وكانت تذيع في بلد آخر كتباً أدبية وعلمية وفنية

وبينما كان القانون يضيق عليها في هذا البلد فلا يبيح لها اذاعة كل شيء كان القانون يرخص لها في ذلك البلد فيتركها تذيع مانشاء وكان الكاتب أو العالم أو الفيلسوف لايظفر بانتشار كتبه في العصور الاولى الا اذا ظفر بشيء من الشهرة وبعد الصيت يرغب الناس في آثاره ولم يكن الظفر بهذه الشهرة سهلا ولا يسيراً . أما الآن فقد يسرت المطبعة على كل ذي رأي أن يذيع رأيه ويناضل عنه وعلى كل باحث أن ينشر ثمرات بحثه بين الناس ولم تكد تظهر المطبعة وتأخذ فيما أخذت فيه من النشر والاذاعة حتى ظهرت آثار ذلك قوية في حياة العصر الجديد فكثرت الآراء واختلفت أو قل ظهرت كثرة الآراء واختلافها واستطاعت أن تجاهد وتختصم وتتنافس في قوة وسرعة لم يكن للناس بهما عهد من قبل

ومن هنا استطاعت كل هذه الامور التي ذكرناها آنفاً وهي الفلسفة والأدب والسياسة والدين والعلم أن تظهر وتلتمس حقها في الوجود وتظفر بهذا الحق . ومن هنا لم يكن العصر الحديث مصطبغاً بصبغة واحدة ظاهرة كالعصور التي سبقته ومن هنا لم يكن من الحق ولا من الصواب أن تبحث في هذا العصر عن قيادة واحدة للفكر أو عن نوع واحد من قادة الفكر . انما أنت مضطر الى أن تبحث عن قيادات للفكر وعن أنواع من قادة الفكر

وخذ القرن السابع عشر مثلا والتمس فيه المؤثر في قيادة الفكر فلن تستطيع أن تقول انه كان عصر فلسفة خالصة أو عصر سياسة خالصة أو عصر أدب خالص أو عصر دين خالص. وانما كان عصر هذه الأشياء جميعاً . بل هناك ظاهرة أخرى ليست أقل من هذه الظاهرة خطراً وهي تمثل الاختلاف العنيف بين العصر الحديث والعصور التي سبقته ولا سيما العصر القديم

فقد كانت قيادة الفكر في العصور الاولى لأمر من هذه الأمور التي أشرنا اليها وكانت في الوقت نفسه لأمة من الأمم أو شعب من الشعوب

كانت لليونان ثم كانت للرومان ثم كانت للعرب ثم عادت الى أوربا فكانت للكنيسة أي لمدينة روما أو قل كانت قيادة الفكر لمدينة من المدن ـ لآثينا وللاسكندرية ولروما ولمكة وللمدينة ولبغداد وللقاهرة ولقرطبة ثم لروما

أما في العصر الحديث فقد تغير هذا كله وكما ان قيادة الفكر لم تكن الى الدين أو الفلسفة أو الادب أو السياسة وانما كانت لها كلها فهي لم تكن لامة بعينها ولا لمدينة بعينها وانما كانت للامم المتحضرة جميعاً وللمدن الظاهرة في هذه الامم وذلك كله أثر من آثار المطبعة

وخذ هذا القرن السابع عشر وابحث عن الفلسفة فيه . فقد كانت في العصور الاولى يونانية أو اسكندرية أو عربية . أما الآن فلن تكون فرنسية ولا انجليزية ولا ألمانية وانما لكل أمة من

هـذه الامم فلسفتها والأمر كذلك في الادب وهو كذلك في السياسة وهو كذلك في الفن والعلم ونوشك أن نقول انه كذلك في الدين أيضاً

للفرنسيين ديكارت وللانجليز بأكون . للفرنسيين شعراؤهم الممثلون وللانجليز شكسبير . للفرنسيين لويس الرابع عشر وريشليو وللانجليز كروميل . ونستطيع أن نذكر في الفلسفة والادب والسياسة والدين والعلم والفن أسماء ايطالية وألمانية وهولندية

وعلى هذا النحو اشتد توزع قيادة الفكر بين المؤثرات المختلفة من جهة وبين الأمم والمدن من جهة أخرى وأخذ يزداد شدة كلما كثرت المطابع وكثرت اثارها المنشورة حتى انتهى الأمر في القرن الثامن عشر الى شيء يشبه الفوضى بل الى الفوضى . وما أظن اني أقول جديداً ان زعمت ان المطبعة من أهم المؤثرات في الثورة الفرنسية التي لم يفق منها العالم بعد

— ٣ —

ولم يقف الأمر بالمطبعة عند نشر الكتب والرسائل وما اليها وعند استحداث ما استحدثت من الآثار في القرن السادس عشر والسابع عشر ولكن المطبعة استتبعت شيئاً آخر غير الكتب والرسائل . استتبعت الصحف اليومية والدورية كما يقولون

وما أظن انك في حاجة الى أن أدلك على ان ظهور الصحف السياسية والعلمية والادبية قد قوى توزع قيادة الفكر وانتهى به الى حد غريب فقد كان العلماء والكتاب والفلاسفة والساسة

ينشئون كتبهم وينشرونها فيستغرق ذلك منهم الأشهر والأعوام ويستتبع ذلك بطء فيما يكون بينهم من النزاع والنضال والاستباق الى قيادة الفكر . أما بعد ان ظهرت الصحف فالنزاع يومي أو أسبوعي أو شهري . هو عنيف وهو سريع وهو متصل . وهو مؤثر في توزيع قيادة الفكر بمقدار ما يشتد ويسرع ويستمر

والنتيجة الظاهرة لهذا كله هو اننا كنا نجد في العصور الاولى رجلا يقود شعباً وشعباً يقود العالم . أما الآن فقلما يظفر الرجل بقيادة مدينة أو فرقة في مدينة وهو ان ظفر بذلك فانما يظفر به الى حد وعلى مشقة وجهد الاّ أن يكون فذاً من أفذاذ التاريخ حقاً أو يكون في أمة جاهلة لم تظفر المطبعة فيها بهذا السلطان العظيم ولم يكثر فيها القراء والكاتبون

أحب أن تلتمس قيادة الفكر لا أقول في العالم ولا أقول في أوربا وأميركا وانما أقول في فرنسا وحدها الآن لأي نوع من أنواع المؤثرات هي . أللفلسفة ؟ ولأي فلسفة ؟ ألفلسفة الوضعيين أم لاصحاب مابعد الطبيعة ؟ ولأي فريق من هؤلاء ؟ أم هي للدين؟ ولأي دين ؟ أللكاثوليكية أم للانجيلية ؟ أم هي للادب ؟ ولأي مذهب من مذاهب الادب ؟ فقد يكون احصاء هذه المدارس عسيراً . أم هي للسياسة ؟ ولأي لون من ألوان السياسة ؟ للجمهورية المعتدلة أم للديمقراطية المتطرفة ؟ أم للملكية ؟ أم للامبراطورية ؟ أم للشيوعية ؟ أم للاشتراكية ؟

وتستطيع أن تسأل هذا السؤال بالقياس الى كل بلد من بلاد أوربا الراقية

— ٤ —

وكأن المطبعة وما استتبعت من النشر والاذاعة والصحف وما استتبعت من الالحاح في النشر والاذاعة لم تكن تكفي لتوزيع قيادة الفكر بين المؤثرات المختلفة والامم المختلفة والفرق المختلفة . فاستحدث هذا العصر الجديد شيئاً آخر أو أشياء أخرى يخيل الينا في ظاهر الأمر أنها تعين على توحيد الكلمة وجمع الرأي وقصر قيادة الفكر على مؤثر بعينه أو أمة بعينها . ولكنها في حقيقة الأمر تجمع الناس وتقرب ما بينهم من المسافات المادية والمعنوية وهي في الوقت نفسه تعين في توزيع قيادة الفكر امعاناً غريباً

هذه الاشياء هي ما اتفقنا على تسميته أسباب المواصلات

ألغيت المسافات أو كادت تلغى . لا تقول بين الامم والشعوب بل تقول بين القارات الى أن يأتي اليوم الذي تقول فيه الاجيال المقبلة بين الافلاك والكواكب وأصبحنا بفضل البخار والكهرباء وبفضل التلغراف والتليفون نستطيع أن نعرف في مصر آخر النهار ما يقع في أقصى الغرب أو أقصى الشرق أو أقصى الشمال والجنوب في أوله. وأصبح الفيلسوف أو الأديب أو العالم لا يكاد يخرج كتابه للناس في بلده الذي يعيش فيه حتى ينتشر هذا الكتاب في أطراف الأرض فاذا هو يدرس ويلخص ويترجم ويفسر ويناقش في البلاد

الأجنبية واذا هو يحدث آثاراً مختلفة في البلاد والبيئات المختلفة واذا آثاره تمعن في التغلغل وتتعمق في حياة الشعوب ـ كل ذلك ولم يمض على ظهور كتابه عام أو بعض عام واذا اصداء هذا الكتاب المختلفة تتجاوب في اقطار الأرض وترتد الى حيث ظهر الكتاب. وأصبح الرجل من رجال السياسة لا يكاد يكتب فصلاً أو يلقي خطبة أو يفضي الى أحد بحديث حتى يتناول البرق ما قال أو ما كتب فينشره في جميع أطراف الأرض ولم يمض على قوله أو كتابته ساعات . ولعلك تلاحظ أن الصلة بيننا وبين المدن الكبرى في أوربا وأميركا قد ألغت المسافة بالفعل فيما يتصل بالسياسة . فنحن نقرأ ما تكتبه الصحف الانجليزية مثلا في اليوم الذي تكتبه فيه والانجليز يقرأون ما نكتب وما نقول كذلك . بل تجاوز الأمر هذا الحد وأصبح الخطباء السياسيون في الأحداث الكبرى يلقون خطبهم لا تقول في المئات والآلاف من الناس بل تقول في مئات الآلاف

وظاهر هذا كله أن قد اشتدت الصلة بين الجماعات فقرب بعضها من بعض واستطاع بعضها أن يفهم بعضاً . وكان من المعقول أن يكون هذا كله سبباً في توحيد قيادة الفكر وقصرها على شعب من الشعوب أو مدينة من المدن أو لون من ألوان المفكرين . ولكن هذا ليس من الحق في شيء وانما الحق انا لا نعرف عصراً من العصور توزعت فيه قيادة الفكر كما توزعت في هذا العصر

ومصدر ذلك أن اصطناع المطبعة والصحف والبرق والتليفون

وأدوات البخار والكهرباء ليس مقصوراً على شعب من الشعوب ولا على مدينة من المدن ولا على فرقة من الفرق المفكرة وانما هو شائع بين أمم الأرض وهذه الأمم كلها تجاهد وتناضل لتحيا وتسود والأفراد في هذه الامم يناضلون ويجاهدون ليحيوا ويسودوا وهم يصطنعون هذه الأدوات ويستعينون بها على ما يريدون من سيادة وقيادة للفكر

والأفراد يتنافسون والشعوب تتنافس والنتيجة الظاهرة لهذا التنافس أن قيادة الفكر موزعة في الشعوب بين الأفراد النابهين وهي موزعة في العالم بين الشعوب النابهة

واذن فكل شيء يدل على أنه لم يبق أمل في أن تحصر قيادة الفكر في مؤمن بعينه ولا في شعب بعينه ولا في فرقة بعينها من فرق المفكرين وانما السبيل هو أن نبحث عن قيادة الفكر في كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية على حدة بل أن نوزع هذا البحث على الأمم النابهة والشعوب الممتازة

— ٥ —

ومع هذا كله فقد أراد الله أن يخضع النوع الانساني لظاهرة لم يجد إلى الآن سبيلاً إلى أن يخلص منها وليس هو في حاجة إلى أن يخلص منها والخير كل الخير هو ان يستمر خضوعه لها وتأثره بها

هذه الظاهرة هي ظاهرة النبوغ التي تكره الأمم والشعوب والانسانية كلها أحياناً على أن تعترف بفرد من الأفراد وتذعن

لقوته العقلية أو الفنية أو السياسية رغم ما فيها من قوى وكفايات ومن جهاد بين هذه القوى والكفايات

وليس هنا موضع البحث عن النبوغ والتماس أصوله والمؤثرات فيه وانما يكفي أن نلاحظ أن النبوغ ظاهرة اجتماعية عرفها أكثر العصور ولم يستطع تغير الظروف واستحالة أطوار الحياة أن يمحوها أو يزيلها أو يضع من قدرها

فقد تستطيع المطبعة أن تنشر وتذيع وتسرف في النشر والاذاعة وقد يستطيع الناس أن يجاهدوا ويناضلوا ويستحدثوا الآثار المختلفة في ألوان الحياة وفروعها ولكن شيئاً من هذا لن يستطيع أن يمحو نبوغ ديكارت وأنه قد صبغ الفلسفة الحديثة صبغة خاصة ممتازة ووجهها وجهة خاصة مكنتها من الانتاج والأثمار

ولن يستطيع شيء من هذا أن يمحو ما كان لروسو من أثر في حياة الشعوب وفي سياسة العصر الحديث . ولن يستطيع شيء من هذا أن يمحو ما كان لفيكتور هوجو من أثر في الشعر الفرنسي والأدب الفرنسي الحديث بوجه عام

النبوغ اذن ظاهرة اجتماعية واقعة نشهدها من حين الى حين والأفراد النابغون مهما تعترضهم العقبات ومهما يكتنفهم من الظروف لهم من قيادة الفكر والسيطرة عليه حظ يلائم نصيبهم من النبوغ

فاذا قلنا أن قيادة الفكر في القرن السابع عشر لم تكن إلى الفلسفة وحدها فنحن مضطرون الى أن نقول أن قيادة الفكر الفلسفي في هذا العصر كانت الى ديكارت . واذا قلنا أن قيادة

الفكر في هذا العصر لم تكن للسياسة وحدها فنحن مضطرون إلى أن نقول أن قيادة الفكر السياسي في هذا العصر كانت لريشيليو وكرومويل ولويس الرابع عشر

وقل مثل ذلك في الأدب والفن والعلم والدين . وكل ما بين هذا العصر والعصور السابقة من الفروق هو أن قيادة الفكر قد تنوعت وتوزعت في العصر الحديث فأصبحتَ مضطراً إلى أن تقسم البحث عنها إلى فصول وتلتمسها عند كثير من الناس في كثير من الامم بعد أن كنت تستطيع أن تجمع البحث عنها في فصل واحد وتلتمسها عند رجل واحد في شعب واحد أو مدينة واحدة

وبين يدينا كتاب « لاميل فاجيه » حاول فيه أن يدرك قادة الفكر في الاخلاق والسياسة وحدهما وفي فرنسا وحدها وفي القرن التاسع عشر وحده فلم يستطع أن يكتب أقل من ثلاثة أسفار ضخام

— ٦ —

وكم كنت أحب أن أمضي في هذا الحديث فأدرس النابهين من قادة الفكر المحدثين كما درست النابهين من قدة الفكر القدماء ولكنك ترى معي أن هذا السفر قد طال وانتهى إلى غاية يحسن الانتهاء اليها والوقوف عندها وأن درس المحدثين من قادة الفكر على اختلاف ما تفوقوا فيه من فروع حياة العقل والشعور يحتاج لا أقول الى سفر آخر بل إلى أسفار

وأنا أتمنى (وما أكثر ما يتمنى الانسان) أن يتيح الله لي من

سعة الوقت وفراغ البال والنشاط لمثل هذا البحث ما يمكنني من المضي فيه حتى أتمه على النحو الذي قدمته في سفر أو أسفار ولكن علم هذا كله عند الله

فأنا أقدم اليك هذا السفر الذي قدرت عليه ولست أطمع في أن يبلغ منك مكان الرضا وانما أرجو أن يقع منك موقع النفع في غير مشقة ولا ملال

وأظنك تأذن لي في أن أعتذر اليك مما قد تجد في هذا الكتاب من تفاوت واختلاف. فقد كنت أريد أن أفرغ لكتابته حيناً ولكن ظروف الحياة أرادت غير هذا فكتبت بعض فصوله في بريطانيا وكتبت بعض فصوله الأخرى في باريس وأتممته في القاهرة وكنت في بعض هذه الأوقات راضياً مطمئناً مستريحاً إلى الحياة والأحياء فارغ البال الا مما يلذ ويسر وكنت في بعضها الآخر ساخطاً أو كالساخط مكدوداً موزع القوة بين أعمال مختلفة من الدرس والكتابة وغير الدرس والكتابة . ولعلي لا أتجاوز الحق ان قلت أني قد اختلست هذا الكتاب اختلاساً . اختلست بعضه من أوقات راحتي في فرنسا واختلست بعضه الآخر من أوقات عنائي في مصر . وأنا أتمنى لهذا الكتاب ألا يختلس قراؤه قراءته كما اختلس كاتبه كتابته وأن يبيح الله لقرائه ما لم يتح لي من الراحة والنشاط وفراغ البال